نظرة عابرة

في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة

بقلم

الاستاذ الإمام محمد زاهد الكوثري

وكيل المشيخة الاسلامية في الدولة العثمانية سابقا

١٢٩٦ – ١٣٧١

الطبعة الأولى بالقاهرة
سنة ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م

الطبعة الثانية بالقاهرة
سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـدمة الناشر :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى من تَبِعَ سُنَّتَهُ واهتَدَى بهَدْيه إلى يوم الدين.

وبعد فهذا كتابُ «نظرةٌ عابرة فى مَزَاعم من يُنْكِرُ نزولَ عيسى قَبْلَ الآخِرة» ، للإمام الهُمَام الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله تعالى ، وقد رَدَّ به على مزاعم الشيخ محمود شلتوت ، فى فتواه بشأن وفاةِ سيدنا عيسى ورفعِهِ ونزولِهِ ، التى نُشِرَتْ فى حين صدورها فى مجلة «الرسالة» ، ثم أَدرَجَها فى كتابه المسمَّى : «الفتاوى» .

ننشرُ هذا الرد بمناسبةِ عودةِ النِّحْلَةِ القاديانية الضالَّةِ ، إلى النشاطِ والبروزِ فى كثيرٍ من بلدانِ أُوربا وأَمريكا وغيرِهما ، لتضليل الناسِ الغُفْل القليلى المعرفة .

وكان قد تقدَّمَ بالاستفتاءِ عن مضمونِ هذه الفتوى بعضُ الضُّبَّاطِ القاديانيين ، فى جيش الاحتلال الإنكليزى لمصر قبلَ استقلالها ، المسمَّى : عبد الكريم خان ، تقدَّمَ بالاستفتاءِ إلى شيخ الأَزهر آنذاك ، الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وتضمَّن الاستفتاءُ : (هل عيسى حىٌّ

أَم ميت فى نظر القرآن الكريم والسنة المطهرة ؟ وما حكمُ المسلم الذى يُنكِرُ أَنه حىٌ ؟ وما حكمُ من لا يؤمنُ به إذا فُرِضَ أَنه عاد إلى الدنيا مرةً أُخرى) ، كما سيأتى فى أَول الفتوى من الشيخ شلتوت .

فأَحال الشيخُ المراغى هذا الاستفتاءَ إلى الشيخ محمود شلتوت ، المعروفِ بشذوذ آرائه فى كثير من المسائل العامية الراسخة ، فخرَجَتْ الفتوى بالصورة التى أَثارت العلماء ، واستنكرها الناسُ أَشدَّ الاستنكار وردَّ عليها أَكْثَرُ من عالم ، وكان فى طليعة العلماءِ الكبار الرادين عليها الشيخُ محمد زاهد الكوثرى ، فرَدَّ عليها بهذا الكتاب الفَذِّ المتين .

ونظراً إلى أَننا ننشرُ رَدَّ العلامة الكوثرى هذا ، رأَينا من المناسب المفيد أَن ننشر معه كلامَ الشيخ شلتوت المردودَ عليه ، منقولاً عن كتابه « الفتاوى » ، ليقف القارئُ على النص المردودِ عليه من كلام الشيخ شلتوت ، فيزداد فهماً وإدراكاً لكلام الشيخ الكوثرى الذى رَدَّ به ، مع العلم أَنَّ رَدَّ الشيخ الكوثرى ، كان على كلام الشيخ شلتوت الذى نَشَرَهُ فى مجلة « الرسالة » ، وقد لخَّصَه وشَذَّبهُ الشيخ شلتوت فى كتابه « الفتاوى » ، وبقى فى هيكله العام يَحمِلُ الشذوذَ : المردودَ عليه فى مجلة « الرسالة » ، رغم التشذيب والتهذيب !

ورأَينا من المفيد جداً أَن نُصَدِّرَ هذه الطبعةَ من كتاب الكوثرى ،

بترجمتِهِ التى كان قد كتبها الشيخ الإمام محمد أبوزهرة ، بعد وفاة الشيخ الكوثرى رحمهما الله تعالى ، بنحو سنة ، لتُعرِّفَ القراءَ بسُمُوِّ مرتبة الشيخ الكوثرى فى العلم والتحقيق والإمامة ، فى نظر كبار العلماءِ أمثالِ الشيخ أبى زهرة ، فإليك أولاً ترجمة الشيخ الإمام الكوثرى ، ثم يتلوها نَصُّ كلامُ الشيخ شلتوت ، ثم تلخيصُ ما تَضمَّنَتْهُ فتواه فى أسطرٍ قليلة ، ثم كتابُ الشيخ الكوثرى ، ومن الله تعالى نستمدُّ العونَ والتوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

القاهرة ١٤٠٧/١١/١٠
١٩٨٧/٧/٦

الناشر

الامـــام الكوثرى

بقلم الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة
وكيل كلية الحقوق وأستاذ الشريعة بجامعة القاهرة
(رحمهما الله تعالى)

١ — منذ أكثر من عام فَقَدَ الإسلامُ إماماً من أئمة المسلمين الذين عَلَوْا بأنفسهم عن سَفْسَافِ هذه الحياة ، واتجهوا إلى العلم اتجاهَ المؤمن لعبادة ربه ، ذلك بأنه عَلِمَ أن العلم عبادةٌ من العبادات يَطلُبُ العالمُ به رضا الله لا رضا أحَدٍ سواه ، لا يَبْغِى به عُلُوّاً فى الأرض ولا فساداً ، ولا استطالةً بفضلِ جاه ، ولا يُريدُه عَرَضا من أعراض الدنيا ، إنما يَبغِى به نُصرةَ الحق لإرضاءِ الحق جل جلاله . ذلكم هو الإمامُ الكوثرى ، طيَّب الله ثراه ، ورَضِىَ عنه وأرضاه .

لا أعرفُ أنَّ عالماً مات فخَلَا مكانُه فى هذه السنين ، كما خلا مكانُ الإمام الكوثرى ، لأنه بَقِيَّةُ السلفِ الصالح الذين لم يجعلوا العلمَ مُرتَزَقاً ولا سُلَّماً لغاية ، بل كان هو منتَهَى الغاياتِ عندهم ، وأسمَى مَطارح أنظارِهم ، فليس وراءَ علم الدين غايةٌ يتغيَّاها مؤمن ، ولا مُرْتَقىً يَصِلُ إليه عالم .

لقد كان رَضِىَ الله عنه عالماً يَتحقَّقُ فيه القولُ المأثورُ « العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ » ، وما كان يَرى تلكِ الوِراثةَ شَرَفاً فقط ، ليفتَخِرَ به

ويَستطِيلَ على الناس ، إنما كان يَرى تلك الوراثة جهاداً فى إعلان الإسلام ، وبيانِ حقائقهِ ، وإزالةِ الأَوهام التى تَلحَقُ جوهرَهُ ، فيُبْدِيه للناس صافياً مُشْرِقا منيراً ، فيَعْشُو الناسُ إلى نُورِه ، ويهتدون بهديه ، وأَنَّ تلك الوِراثَةَ تتقاضَى العالمَ أَن يُجاهِدَ كما جاهد النبيُّون ، ويَصبِرَ على البأساءِ والضراءِ كما صَبَرُوا ، وأَن يَلْقَى العَنَتَ ممن يدعوهم إلى الحق والهداية كما لَقُوا ، فليسَتْ تلك الوراثةُ شَرَفا إلا لمن أَخَذَ فى أَسبابها ، وقام بحقها ، وعَرَف الواجب فيها ، وكذلك كان الإمامُ الكوثرى رَضِىَ الله عنه .

٢ — إنَّ ذلك الإمامَ الجليل لم يكن من المنتحلين لمذهبٍ جديدٍ ، ولا من الدعاةِ إلى أَمرٍ بَدِيءٍ لم يُسْبَق به ، ولم يكن من الذين يَسِمُهم الناسُ اليومُ بسِمَةِ التجديد ، بل كان يَنفِرُ منهم ، فإنه كان مُتَّبِعاً ، ولم يكن مُبْتَدِعاً ، ولكنى مع ذلك أقول : إنه كان من المجدِّدين بالمعنى الحقيقى لكلمةِ التجديد ، لأَنَ التجديد ليس هو ما تعارَفَهُ الناسُ اليوم من خَلْعٍ للرِّبْقَةِ ورَدٍّ لعهدِ النبوَّةِ الأُولى ، إنما التجديد هو أَن يُعادَ إلى الدين رَوْنَقُه ويُزالَ عنه ما عَلِقَ به من أَوهام ، ويُبيَّنَ للناسِ صافياً كجوهرِه ، نقِيًّا كأَصلهِ ، وإنه لمن التجديد أَن تَحيا السُّنَّةُ وتَمُوتَ البدعةُ ويقومَ بين الناس عَمُودُ الدين .

ذلك هو التجديدُ حقاً وصدقاً ، ولقد قام الإمامُ الكوثرى بإحياء

السنة النبو ية ، فكَشَفَ عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كُتُبِها ، وبيَّنَ مناهجَ رُواتِها ، وأعلَنَ للناس فى رَسَائِلَ دَوَّنها وكُتُبٍ أَلَّفها سُنَّةَ النبى صلى الله عليه وسلم ، من أقوالٍ وأفعالٍ وتقريرات ، ثم عَكَف على جهودِ العلماءِ السابقين الذين قاموا بالسنة ورَعوْها حَقَّ رعايتها ، فنَشَر كتبَهم التى دُوِّنَتْ فيها أعمالُهم لإحياءِ السنة والدِّيْنُ قد أُشْرِبَتْ النفوسُ حُبَّهُ ، والقلوبُ لم تُرنَّقْ بفسادٍ والعلماءُ لم تَشغلهم الدنيا عن الآخِرة ، ولم يكونوا فى رِكابِ الملوك .

٣ ــ لقد كان الإمامُ الكوثرى عالماً حقاً ، عَرَف عِلمَهُ العلماءُ ، وقليلٌ منهم من أدرَك جهادَه ، ولقد عَرَفتُهُ سِنينَ قبلَ أن ألقاه ، عَرَفتُهُ فى كتاباتِهِ التى يُشرِقُ فيها نُورُ الحق ، وعَرَفتُهُ فى تعليقاتِهِ على المخطوطاتِ التى قام على نشرها ، وما كان والله عَجَبِى من المخطوط بقَدْرِ إعجابى بتعليقِ من عَلَّقَ عليه ، لقد كان المخطوط أحياناً رسالةً صغيرةً .

ولكنْ تعليقاتُ الإمام عليه تجعلُ منه كتاباً مقروءًا ، وإنَّ الاستيعابَ والاطِّلاعَ واتساعَ الأُفق ، تَظهرُ فى التعليق باديةَ العِيَان ، وكلُّ ذلك مع طَلَاوةِ عبارة ، ولطفِ إشارة ، وقُوَّةِ نقد ، وإصابةٍ للهدف ، واستيلاءٍ على التفكير والتعبير ، ولا يمكنُ أن يجولَ بخاطر القارىء أنه كاتبٌ أعجمى وليس بعربى مُبِين .

ولقد كان لفَرْطِ تواضُعِهِ لا يَكتُبُ مع عنوان الكتابِ عمَلَهُ الرسميَّ الذى كان يتولاه فى حكم آل عثمان ، لأَنه ما كان يَرى رَضِيَ الله عنه أَنَّ شَرَفَ العالِمِ يَنالُهُ مِن عَمَلِهِ الرسمى وإنما ينالُهُ من عملِهِ العِلْمى ، فكان بعضُ القارئين — لسلامةِ المبنى مع دقة المعنى ولإشراقِ الديباجةِ وجزالةِ الأُسلوب — لا يَجُولُ بخاطره أَنَّ الكاتبَ تُركىٌّ بل يعتقد أَنه عربى ، وُلِدَ عربياً ، وعاش عربياً ، ولم تُظِلَّهُ إلا بيئةٌ عربية .

ولكن لا عجَبَ فإنه كان تركياً فى سُلالتِهِ وفى نشأَتِه ، وفى حياتِهِ الإنسانيةِ فى المدة التى عاشها فى الآستانة ، أَما حياتُهُ العلمية فقد كانت عربيةً خالصة ، فما كان يقرأَ إلا عربياً ، وما ملأَ رأْسَهُ المُشْرِقَ إلا النورُ العربىُّ المحمدىُّ ، ولذلك كان لا يكتُبُ إلا كتابةً نقيةً خاليةً من كل الأَساليب الدخيلة فى المنهاج العربى ، بل كان يَختارُ الفصيحَ من الاستعمال الذى لم يَجرِ خِلافٌ حولَ فصاحتِه ، مما يَدلُّ على عِظَم اطِّلاعِهِ على كتب اللغة متناً ونحواً وبلاغةً ، ثم هو فوقَ ذلك يَقْرِضُ الشعرَ العربى فيكونُ منه الحَسَنُ .

٤ — لقد اختَصَّ رَضِيَ الله عنه بمزايا رَفَعَتْهُ وجعَلَتْهُ قُدوةً للعالِمِ المسلم ، لقد علا بالعلم عن سُوْق الاتجار ، وأَعلَمَ الخافِقينِ أَنَّ العالِمَ المسلم وطنُهُ أَرضُ الإسلام ، وأَنه لا يَرضَى بالدَّنِيَّة فى دِينِه ، ولا يأخذُ

من يُذل الإسلامَ بهَوَادَة ، ولا يجعلُ لغير الله والحقِّ عنده إرادة ، وأنه لا يَصِحُّ أن يعيشَ فى أرض لا يستطيع فيها أن يَنطِقَ بالحق ، ولا يُعلِىَ فيها كلمةَ الإسلام ، ، وإن كانت بلَدَهُ الذى نشأَ فيه ، وشَدَا وترعرَعَ فى مَغَانِيه ، فإنَّ العالِمَ يَحيَا بالروح لا بالمادة ، وبالحقائِق الخالدةِ ، لا بالأعراضِ الزائلة . وحَسْبُهُ أن يكون وجيهاً عند الله وفى الآخِرة ، وأما جاهُ الدنيا وأهلِها فظِلٌّ زائل ، وعَرَضٌ حائل .

٥ — وإنَّ نظرةً عابرةً لحياةِ ذلك العالم الجليل ، تُرينا أنه كان العالِمَ المخلِصَ المجاهِدَ الصابرَ على البأساءِ والضرَّاءِ ، وتَنقُّلِهِ فى البلادِ الإسلامية والبلاءُ بلاء ، ونشرِهِ النورَ والمعرفةَ حيثما حَلَّ وأقام . ولقد طَوَّفَ فى الأقاليم الإسلاميةِ فكان له فى كل بلد حَلَّ فيه تلاميذُ نَهَلُوا من منهلِهِ العذب ، وأشرقَتْ فى نفوسهم رُوحُه المخلصة المؤمنة ، يُقدِّمُ العلم صَفْواً لا يُرنِّقُه مِراءٌ ولا التواء ، يَمضِى فى قولِ الحق قُدُماً لا يَهمُّه رَضِىَ الناسُ أو سَخِطُوا ما دام الذى بينه وبين الله عامراً .

ويظهرُ أن ذلك كان فى دمِهِ الذى يَجرِى فى عُرُوقِه ، فهو فى الجهادِ فى الحق منذ نشأَ ، وإنَّ فى أُسرته لَتَقْوَى وقُوَّةَ نَفْسٍ وصبرٍ واحتمالٍ للجهاد ، إنه من أسرة كانت فى القُوقاز ، حيث المَنَعةُ والقُوَّة وجَمَالُ الجسمِ والروحِ ، وسلامةُ الفِكر وعُمقُه .

ولقد انتقل أبوه إلى الآستانة فوُلِدَ على الهُدَى والحق ، فدَرَس العلومَ الدينيةَ حتى نال أعلى درجاتِها فى نحو الثامنةِ والعشرين من من عمره ، ثم تدرَّجَ فى سُلَّم التدريس حتى وَصَل إلى أقصى درجاته وهو فى سن صغيرة ، حتى إذا ابتُلِىَ بالذين يُريدون فَصْلَ الدنيا عن الدين ، لتُحْكَمَ الدنيا بغير ما أَنْزَل الله ، وقَفَ لهم بالمرصاد ، والعُوْدُ أَخضَرُ ، والآمالُ متفتحة ، ومَطامحُ الشباب متحفزِّة ، ولكنه آثَرَ دِينَه على دُنياهم ، وآثَرَ أَن يُدافِعَ عن البقايا الإسلامية على أَن يكون فى عيشٍ ناعم ، بل آثَرَ أَن يكون فى نَصَبٍ دائم فيه رِضَا الله ، على أَن يكون فى عيش رافهٍ وفيهِ رِضَا الناسِ ورِضَا من بيدِهم شُئونُ الدنيا ، لأَن إرضاءَ الله غايةُ الإيمان .

٦ — جاهَدَ الاتحاديين الذين كان بيدهم أَمرُ الدولة لما أَرادوا أَن يُضيِّقُوا مَدَى الدراسات الدينية ويُقصِّرُوا زمنَها ، وقد رأى رَضِىَ الله عنه فى ذلك التقصيرِ نقصاً لأَطرافها ، فأَعمَلَ الحِيلةَ ودبَّر وقدَّر ، حتى قَضَى على رغبتهم ، وأَطال المدةَ التى رغبوا فى تقصيرها ، ليتمكن طالبُ علوم الإسلام من الاستيعاب وهَضْمِ العلوم ، وخصوصاً بالنسبةِ لأَعجمىٍّ يتعلم بلسانٍ عربىٍّ مُبين .

٧ — وهو فى كل أَحواله العالِمُ النَّزِهُ الأَنِفُ الذى لا يَعتمِدُ على ذى جاه فى ارتفاع ، ولا يتملَّقُ ذا جاه لنيل مطلبٍ أَو الوصولِ إلى غايةٍ

مهما شَرُفَتْ ، فإنه رَضِيَ الله عنه كان يَرى أَن معالىَ الأُمور لا يُوصِلُ إليها إلا طريقٌ سليم ومِنهاجٌ مستقيم ، ولا يُمكِنُ أَن يصِلَ كريمٌ إلى غايةٍ كريمة إلا من طريقٍ يَصُونُ النفسَ فيها عن الهَوَان ، فإنه لا يُوصِلُ إلى شريفٍ إلا شريفٌ مِثلُه ، ولا شَرَف فى الاعتماد على ذوى الجاه فى الدنيا ، فإنَّ من يعتمدُ عليهم لا يكون عند الله وجيهاً .

٨ — سَعَى رَضِيَ الله عنه بجِدِّهِ وعَمَلِه فى طريق المعالى حتى صار وكيلَ مشيخةِ الإسلام فى تركيا ، وهو ممن يَعرِفُ للمنصِب حقَّه ، لذلك لم يُفرِّط فى مصلحةٍ إرضاءً لذى جاهٍ مهما يكن قوياً مسيطراً ، وقَبِلَ أَن يُعزَلَ من منصبِهِ فى سبيلِ الاستمساك بالمصلحة . والاعتزالُ فى سبيلِ الحقِّ خير من الامتثالِ للباطل .

٩ — عُزِلَ الشيخُ عن وكالة المشيخة الإسلامية ، ولكنه بَقِيَ فى مجلس وكالتها الذى كان رئيساً له ، وما كان يَرى غَضًّا لمقامِهِ أَن يَنزِلَ من الرياسةِ إلى العضوية ما دام سبَبُ النزول رفيعاً ، إنه العُلوُّ النفسىُّ لا يمنَعُ العاملَ من أَن يَعمَلَ رئيساً أَو مرؤوساً ، فالعِزَّةُ تُستمَدُّ من الحق فى ذاتِهِ ، ويُباركها الحقُّ جل جلاله .

١٠ — ولكنَّ العالِمَ الأَبِيَّ العَفَّ التَّقِيَّ يُمتحَنُ أَشد امتحان ، إذ يَرى بلدَهُ العزيزَ وهو دار الإسلام الكبرى ، ومَناطُ عِزَّتِه ، ومَحطُّ

آمالِ المسلمين يَسُودُهُ الإلحاد ، ثم يُسيطِرُ عليه من لا يرجو لهذا الدينِ وقاراً ، ثم يُصبِحُ فيه القابضُ على دِينه كالقابضِ على الجَمْر ، ثم يَجِدُ هو نَفْسَهُ مقصوداً بالأَذَى ، وأنه إن لم يَنْجُ أُلقِيَ فى غَياباتِ السجن ، وحِيلَ بينه وبين العِلم والتعليم .

عندئذ يَجِدُ الإمام نفسَه بين أمور ثلاثة : إما أن يَبقَى مأسوراً مقيَّداً ، يَنطفئُ علمُهُ فى غياباتِ السجون ، وإنَّ ذلك لعزيزٌ على عالم تَعوَّدَ الدرسَ والإرشادَ ، وإخراجَ كنوزِ الدِّين ليُعلِّمها النَّاسَ عن بينة ، وإما أن يَتملَّقَ ويُداهِنَ ويُمالئ ، ودون ذلك خَرْطُ القَتَاد بل حَزُّ الأَعناق ، وإما أن يُهاجِرَ وبلادُ الله واسعة ، وتذكَّرَ قولَه تعالى (أَلم تكُنْ أَرضُ اللهِ واسِعَةً فتُهاجِرُوا فيها) .

١١ — هاجَرَ إلى مصر ثم انتَقَل إلى الشام ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم رجع إلى دمشق مرةً ثانية ، ثم أَلقَى عصا التسيار نهائياً بالقاهرة ، وهو فى رحلاته إلى الشام ومُقامِهِ فى القاهرة كان نُوراً ، وكانمَسْكَنُهُ الذى كان يَسكُنُه ضَؤُلَ أَو اتَّسَعَ مَدْرَسَةً يَأْوِى إليها طلابُ العلم الحقيقى ، لا طلابُ العلم المَدْرِسِى ، فيَهتدِى أولئك التلاميذُ إلى ينابيع المعرفة ، من الكُتُبِ التى كُتِبَتْ وسُوقُ العلوم الإسلامية رائجةٌ ونفوسُ العلماءِ عامرةٌ بالإسلام ، فرَدَّ عقولَ أولئك الباحثين إليها ووجَّهَهم نحوَها ، وهو يُفسِّرُ المُغْلَقَ لهم ، ويَفِيضُ بغزير علمِه وثمارِ فِكرِه .

١٢ — وإنَّ كاتبَ هذه السطور لم يَلْقَ الشيخ إلا قَبْلَ وفاتِهِ بنحوِ عامين ، وقد كان اللقاءُ الرُّوحىُّ من قَبْلِ ذلك بسِنين ، عند ما كنت أَقرأُ كتاباتِه ،وأَقرأُ تعليقَه على مايُخرِجُ من مخطوط ، وأَقرأُ ما أَلَّف من كتب ، وما كنتُ أَحسَبُ أَنَّ لى فى نفسِ ذلك العالم الجليل مِثلَ مالَهُ فى نفسى ، حتى قرأتُ كتابه «حُسْنُ التقاضى فى سيرة الإمام أَبى يوسف القاضى » فوجدتُه رَضِىَ الله عنه خَصَّنى عند الكلام فى الحِيَلِ المنسوبةِ لأَبى يوسف بكلمةِ خير . وأَشهَدُ أَنى سمعتُ ثناءً من كُبَراءَ وعُلَماء ، فَمَا اعتززتُ بثناءٍ كما اعتززتُ بثناءِ ذلك الشيخِ الجليل ، لأَنه وِسامٌ عِلْمىٌ ممن يَملِكُ إعطاءَ الوِسامِ العلمِى .

سَعيتُ إليه لأَلقاه ، ولكنى كنتُ أَجهَلُ مُقامَهُ ، وإنى لأَسِيرُ فى مَيْدانِ العَتَبةِ الخضراءِ ، فوجدتُ شيخاً وجيهاً وقوراً ، الشيبُ ينبثقُ منه كنُورِ الحق ، يَلْبَسُ لباسَ علماءِ التُّرك ، قد التَفَّ حولَهُ طلبةٌ من سُوْرِيَة ، فوَقَع فى نفسى أَنه الشيخُ الذى أَسعَى إليه . فما أَنْ زايَلَ تلاميذَهُ حتى استفسرتُ من أَحدِهم : من الشيخ ؟ فقال إنه الشيخُ الكوثرى ، فأَسرعتُ حتى التقيتُ به لأَعرِف مُقامَه ، فقدَّمتُ إليه نفسى ، فوجدتُ عنده من الرغبة فى اللقاءِ مِثلَ ما عندى ، ثم زرتُهُ فعَلِمت أَنه فَوْقَ كُتُبه ، وفَوْقَ بُحوثه ، وأَنه كَنْزٌ فى مِصر .

١٣ ــ وهنا أريد أن أُبدىَ صفحة من تاريخ ذلك الشيخ الإمام ، لم يعرفها إلا عدد قليل :

لقد أَردتُ أَن يَعُمَّ نفعُه ، وأَن يتمكَّن طلابُ العلم من أَن يَرِدوا وِرْدَهُ العذب ، وينتفعوا من مَنْهلِهِ الغزير ، لقد اقتَرَح قسمُ الشريعة على مجلس كلية الحقوق بجامعة القاهرة : أَن يُندَبَ الشيخُ الجليل للتدريس فى دبلوم الشريعة ، من أَقسام الدراسات العليا بالكلية ، ووافَقَ المجلسُ على الاقتراح بعدَ أَن عَلِمَ الأَعضاءُ الأَجلاءُ مكانَ الشيخ من علوم الإسلام ، وأَعمالَهُ العلميةَ الكبيرة .

وذهبتُ إلى الشيخ مع الأُستاذ رئيس قسم الشريعة إبَّان ذاك ، ولكننا فوجئنا باعتذار الشيخ عن القبول بمَرَضهِ ومَرَضِ زوجِه ، وضَعْفِ بصره ، ثم يُصرُّ على الاعتذار ، وكلَّما أَلححنا فى الرجاءِ لَجَّ فى الاعتذار ، حتى إذا لم نجد جَدْوَى رجوناه فى أَن يُعاوِدَ التفكيرَ فى هذه المُعاونة العلمية التى نَرْقُبُها ونتمنَّاها ، ثم عُدتُ إليه منفرداً مرةً أُخرى ، أُكرِّرُ الرجاءَ وأُلحِف فيه ، ولكنه فى هذه المرةِ كان معى صريحاً ، قال الشيخ الكريم ... إنَّ هذا مكانُ علم حقاً ، ولا أُريدُ أَن أُدرِّسَ فيه إلا وأَنا قَوِىٌّ أُلقِى دروسى على الوجه الذى أُحِبُّ ، وإنَّ شيخوختى وضَعْفَ صحتى وصِحَّةِ زوْجِى ، وهى الوحيدةُ

فى هذه الحياة ، كلُّ هذا لا يُمَكِّنِنِى من أَداءِ هذا الواجبِ على الوجهِ الذى أَرضاه .

١٤ - خرجتُ من مجلس الشيخ وأنا أقولُ أَىُّ نَفْسٍ عُلْوِيَّة كانت تُسجَنُ فى ذلك الجسم الإنسانى ، إنها نفس الكوثرى .

وإنَّ ذلك الرجلَ الكريم الذى ابتُلِىَ بالشدائد ، فانتَصَر عليها ، ابتُلِىَ بفقدِ الأَحبة ، ففَقَدَ أَولادهُ فى حياته ، وقد اخترمَهُم الموتُ واحداً بعدَ الآخر ، ومع كل فقدٍ لَوْعَة ، ومع كل لوعة نُدوبٌ فى النفسِ وأَحزانٌ فى القلب . وقد استطاع بالعلم أَن يَصبِرَ وهو يقول مقالةَ يعقوب « فصَبْرٌ جميلٌ واللهُ المُستعَانُ » ولكنَّ شريكتَه فى السرَّاءِ والضراءِ أَو شر يكتَهُ فى بأساءِ هذه الحياة بعدَ توالى النكبات ، كانت تُحاوِلُ الصبرَ فتَتَصبَّرُ ، فكان لها مُواسياً ، ولكُلُومها مُداوياً ، وهوهو نفسُه فى حاجةٍ إلى دَوَاءٍ .

ولقد مَضَى إلى ربه صابراً شاكراً حامداً ، كما يَمضِى الصِّدِّيقُون الأَبرار ، فرَضِىَ الله عنه وأَرضاه .

محمد أبو زهرة

وقد وصف الكوثرى بالإمامة ١١ مرة ، و ترضى عنه ١٠ مرات ، وقال : « إنه كان من المجددين بالمعنى الحقيقى لكلمة التجديد » .

نظرة عابرة

فى مزاعم من يُنكِرُ نزول عيسى قبل الآخرة

بقـــلم

الإمام الاستاذ / محمد زاهد الكوثرى

رحمة الله تعالى